أحلام العام الجديد

الآن وعلى اللحظة المفصل بين عامين، حين نحذف من كتاب أعمالنا زمن سنة كاملة وننظر إلى زمن السنة المقبلة، ماذا يمكننا أن نتأمل؟

كتاب دهرنا ينطوي، والآن نطوي إحدى الصفحات منه لنبدأ بقراءة وكتابة الصفحة التالية! إنّ زمنَ الإيمان ليس خارج "الزمان"! حيث دخل الله ليس إلى تاريخ البشر فقط، بل اندرج أيضاً في العهد الذي علامته الختان. ثمّ يكلّمنا عن نشاطه عندما بلغ الثانية عشر من عمره، وهو ينمو أمام الله والناس بالنعمة. فهل توجد تعابير أقوى من هذه تثبت تاريخ الله في قلب تاريخ البشريّة؟ التجسّد الإلهيّ يعني أنّ الله جاء في زمن البشر وقسم التاريخ إلى ما قبل المسيح وبعده.

يهتمّ الكتاب كثيراً بالزمن. فهو يبدأ بإشارة زمنيّة، فأولى كلمات الكتاب هي "في البدء"، أي في اللحظة "صفر" من الزمان. والكلمة الأخيرة فيه هي إشارة زمنية، وتتكلّم ليس عن زمن بطيء وإنّما عن "سرعة" الزمن، وتقول العروس والروح: "تعالَ أيها الربّ يسوع"، فيجيب يسوع: "ها أنذا آتٍ على عجل". وهذه العجلة تعني أن الله مصمم أن يدخل إلى حياتنا ودنيانا بسرعة رغم تأخيرات البشر لتدبير حبّه الإلهيّ.

الربّ يأتي سريعاً، إنّه يحبّ الزمن ويجلّه. وكما قال بولس الرسول، ها هو زمن موافق لعمل الربّ. فالإيمان المسيحيّ يقدّس الزمن ويعطي أهمّية كبيرة لكلّ لحظة منه، لأن زمن حياتنا ثمين جداً، فهو زمن الله في أمانتنا.

وفي سبيل تقديس الزمن رتّبت الكنيسة ما نسمّيه "الأعياد". وما العيد إلاّ وقفة لفحص قداسة الزمن على ضوء أحداث الخلاص، ومقارنة تسلسل أيّام حياتنا مع منحى مسيرة التاريخ الإلهيّ في زمن البشر، ومحاولة تطبيق الاتجاهَين وتوفيقهما.

العيد ليس ذكرى في الزمن الحاضر لحدثٍ تمّ في زمن غابر. هذا الأسلوب من التعييد يحدث في الأعياد الأخرى. في أعيادنا الليتورجية يُعِيد العيد ليس الذكرى ولكن الحدث ذاته.

لقد كسر الربّ يسوع بيديه مرّة في التاريخ الخبزَ وبارك الخمر وأعطاها جسداً ودماً كريمَين. ونحن في القداس الإلهيّ نجعلها ونريدها عيداً لهذا الحدث، لا نكرّر تذكاراً بل نتناول أيضاً الجسد والدم الأكرمَين. هناك من أجل ذلك الحدث استغرق الموضوع تاريخاً طويلاً وتهيئة سنوات وسنوات. ولكن بعد الحدث لا يحتاج العيد الذي يجدّد الحدث إلى التاريخ بل إلى التهيئة فقط. فعندما نقدّم نحن التهيئة الروحيّة للحدث يمكننا إحياء العيد وتكرار الحدث دون تكرار تاريخه الطويل.

واليوم عيد رأس السنة! فبماذا يمكننا أن نتأمّل أو نفكّر أو نعيّد؟ وما هو الحدث الذي علينا أن نحييه أو نقدّسه؟ في يوم كهذا يراجع الإنسان ماضيه ويحلم بمستقبله. إنّه اليوم الذي يختم الإنسان فيه على التعديلات في برامجه القديمة ويثبّت برامجه الجديدة. إنّه عيد الأحلام الجديدة؛ إنّه عيد "الرجاء الجديد".

وهل للمسيحيّ أحلام، إلاّ تلك التي تتطابق مع الأحلام الإلهيّة من أجله؟ وهل هناك من رجاء أجمل من تلك الصلاة "لتكنْ مشيئتك"؟ عيد رأس السنة هو حدث تطبيق وتوفيق أحلامنا ورجائنا مع الرجاء الإلهيّ لنا. فالحب الإلهيّ يحبّ لنا أكثر مما نعرف نحن خيرنا، وهو يعرف حاجاتنا قبل أن نطلبها كما يقول الربّ.

ماذا نرجو وبماذا نحلم في بداية هذا العام؟ ليس من رجاء وحلم أجمل، وليس من شهوة حقيقيّة لدى المسيحيّ سوى أن يكون كالمسيح، الذي تجسّد اليوم لنتألّه نحن. هذا هو مثَلنا الأعلى الذي نسعى إليه، وعلى أساس ذلك نقيس نجاحنا في الزمن أو فشلنا! نحن نقيّم الزمن على مقدار تحقيق هذا الرجاء الجديد. عيد رأس السنة يقدّس جهودنا في سبيل تحقيق هذا الرجاء. إنّه اليوم الذي نفحص فيه أين نحن من هذه الغاية؟

وصِفات رجائنا هذا، وطابع العيد هذا، تتّسم بالحقائق الثلاث التالية:

أولاً أن رجاءنا ممكن ومحقّق. فلسنا نحلم بما هو غير ممكن. إذا حلم شاب أن يصير عالماً، نصدقه. وإذا حلم أن يصير مثلاً ملاكاً، لا نصدقه. التصاق عيد الميلاد بعيد رأس السنة، أي عيد "التجسّد" بعيد "الزمن" يؤكد أنّه إن حلم الإنسان أن يصير إلهاً نستطيع أن نصدّقه. أحلامنا مبرهنة في شخص يسوع ومن بعده بتلك السحابة من القدّيسين والشهداء. القداسة والتألّه، المسيحيّة الكاملة ليست أحلاماً لدهرٍ آتٍ، بل هي غاية الدهر الحاضر. الرجاء المسيحيّ واقعيّ وليس خياليّاً. رجاؤنا موجود ليتمّ وليس ليخدّر."من آمن بي يعمل الأعمال التي أعملها وأعظم منها"، هذه كلمات يسوع التي نقيم عليها رجاءنا.

ولقد أقام الرسل ومن بعدهم القدّيسون موتى، وذاك صُلب كمعلّمه وآخر أحبّ حتّى الموت... والتاريخ يسير والكنيسة مكان وزمان تقديس الإنسان وتأليهه، حيث منها كلّ "ابنِ بشرٍ" يصير "مسيحاً-ابناً لله".

والصفة الثانية لرجائنا، التي يقدسها ويكرّسها هذا العيد هي أننا نحقّقه بالنعمة وليس بالقدرة. أحلامنا فعلاً أكبر من القدرات البشريّة ولن نحلم ولن نرجو ما هو بمقدورنا. نريد أن يكون رجاؤنا كبيراً، وهو كذلك. نريد "أن نصير آلهة"! ولكنّنا نعرف من الكتاب المقدس والخبرة أن كلمات يسوع حقيقيّة: "بدوني لا تقدرون أن تصنعوا شيئاً". ونعرف أيضاً أن دورنا يكمل حين نقدم كلّ إرادتنا وكلّ قلبنا وهو من يتمم لنا وفينا رجاءنا. فالتراب لا يقدس تراباً. نحن نجتهد لنمدّ يدنا كلّها بعزم قوي إلى يده، ولكن هو من ينشلنا كما نشل بطرس من المياه. نحن نجاهد لنكون أهلاً لعمل النعمة. نحن نصلي ونصوم ونسجد ونتعب ونسهر لكي لا نمنع حضور النعمة بسبب كسلنا أو تردّدنا.

والصفة الثالثة لرجائنا هي "البهجة". فاقتران رجائنا بالقصد الإلهيّ وتوافقه مع الرضى الإلهيّ يعطينا اليقين والسلام والثقة. وهذا ما يفتقده الكثيرون. السعادة في الحياة بالأساس لا تقوم على الراحة أو التعب، إنّما على اليقين والسلام. السعيد ليس المستريح، بل الذي يتعب لكن بيقين، سعادتنا تأتي من تطابق رجائنا مع القصد الإلهيّ.

بهجتنا هذه لا تلغي التوبة. ورجاؤنا ثمين لدرجة تجعلنا كلّ يوم ساهرين عليه وعلى تحقيقه. كرامة رجائنا تجعلنا نكرم عيد رأس السنة وإعادة حساباتنا. إيماننا بعظمة رجائنا، ورجاؤنا هذا يعطياننا دينامية الحياة ويقدسان الحركة في الزمن. هذه هي الدوافع التي تجعلنا نقدس الزمن ونريد أن نتحرك به "على عجل" على شبه سرعة الله فيه. رجاؤنا هذا يدفعنا لنجدّد ذواتنا كلّ عيد.

فباركْ يا ربّ رأس السنة وبدايتها بخيريتك.

وها وقت موافق لنعمل فيه للربّ.

آميــن